واقع النثر العربي ونقده في العصر الحديث
الرسائل الأدبية أنموذجاً
(رؤية استشراقية من منظور أدبي)

فهد إبراهيم سعد البكر: محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة حائل – المملكة العربية السعودية

مقدمة

الحمد لله الذي أعزّنا بالعلم والإسلام ، وفضّلنا على خلقه بهذا الدين الختام ، فصرنا بفضله تعالى ، وبنهج رسوله صلى الله عليه وسلم في قمة المجد وذروة السنام ، أحمده جلّ في عليائه ، وأصلي على صفوة رسله وأنبيائه ، نبيّنا الهادي البشير ، والسراج المنير محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ثم أما بعد:

فهذه ورقة عمل أعددتها للوفاء بمتطلب هذه الندوة الكريمة التي تصدت للدراسات الإنسانية في محاولة منها لإعادة النظر فيها والاهتمام بها في وقت أصبحت العلوم التطبيقية فيه رائدة ، تحوز قصب السبق دوما ، وتستطلع وتستكشف وتأتي بالجديد.

من هنا كان الاهتمام بالدرس الإنساني أمرا متأخرا في مضمار سبق العلوم والمعرفة ، ولعل في هذه الندوة المباركة ما يستعيد قوى التنافس بين

العلوم ، ويجلي أهمية المعارف الإنسانية ، وما يمكن أن تحدثه في مستقبل الدراسات.

وقد عنونت ورقتي هذه بـــ " واقع النثر العربي ونقده في العصر الحديث ، الرسائل الأدبية أنموذجا " وقد قسمت هذه الورقة أربعة أقسام ، قارنت في أولها بين الفنون النثرية بعامة في القديم والحديث ، ثم تحدثت بعد ذلك في القسم الثاني عن واقع الرسائل الأدبية ونقدها قبل القرن العشرين ، وفي القسم الثالث كان الحديث عن واقع الرسائل الأدبية ونقدها في القرن العشرين بوصفه عصر التوهج ، وفي القسم الرابع جاء الحديث عن واقع الرسائل الأدبية ونقدها فيما بعد القرن العشرين ، وما آل إليه واقعها في الحاضر والمستقبل.

تمهيد

إنّ المتأملَ في واقع النثر العربي قديماً وحديثاً يجدُه أقلَّ شأناً من صِنوِه الشعر ، فالنثرُ لا يُسمعُ له صوتٌ في حَضرَة الشعر الذي سرق الاهتمامَ منه منذ القِدَم ، منذ أن كان الجاهليون يَطرَبُون لأشعارهم ويُطرِبُون ، ويتَفَاخرون بها ويُفَاخرون.

ولا يعني الاهتمامُ البالغُ في الشعرِ وجودَ قُصُورٍ في النثر؛ فمن حيث القِدَم يعتبرُ النثرُ أطولَ عُمُراً من الشعر رغم الخلاف الطويل حول أيهما أقدم ، وأيهما أفضل[1].

[1] الحديث عن أفضلية الشعر والنثر وأقدميتهما يطول عرضه ويتسع ذكره ، ولكن لابدّ من الإشارة إلى أنه بابٌ طرقه الكثير من النقاد قديماً وحديثاً ، ولاغرو فهو من المفارقات الضدية كالحديث عن اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون ونحو ذلك .

ونذكر ممن طرق هذا المجال من القدماء على سبيل المثال لا الحصر : ابن رشيق القيرواني(ت456هـ) في كتابه (العمدة) حيث صدّر كتابه بباب في فضل الشعر تحدث من خلاله مُنتصراً للشعر ومتحاملاً على النثر ، مُبيّناً فضل الأول على الثاني.

ينظر : ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد د.ط ، دار الطلائع ، القاهرة 2006م ، 17/1 – 20.

وكذلك فعل طه حسين مثلاً في كتابه (في الأدب الجاهلي) حيث تحدث عن أفضلية الشعر وقدم النثر وانتصر للشعر على النثر ، وإن كان النثر لم يسلم هو الآخر من ادعاءات الانتحال التي خلعها كعادته على الشعر وليس هذا بمستغرب منه على النثر فهو من باب أولى.

ينظر: طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ط/3 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة فاروق ، القاهرة 1933م ، ص : 346 – 355.

على أنّ بعض القدماء كعلي بن خلف الكاتب في كتابه(مواد البيان) وقف موقفاً وسطاً انتصر فيه للنثر وبيّن فضل الشعر.

ينظر : علي بن خلف الكاتب ، مواد البيان ، تحقيق : د.حسين عبد اللطيف ، د.ط ، منشورات جامعة الفاتح طرابلس1982م ، ص :60 – 62.

ومن النقاد المحدثين من بيّن فضل النثر وأهميته وأنه المستأثر بالغالبية العظمى من بين الأجناس الأدبية ، فهو لغة القصة والمسرحية والخاطرة والسيرة الذاتية والمقالة والمذكرات ونحوها.

إلا أنه يجب الاعترافُ بأنّ النثرَ أوسعُ باباً وأكثرُ موضوعاتٍ من الشعر رغم أن العربيَّ بطبعه كان يطرب للشعر ويأنس به ، يبثّه الشجون والأحزان ، فيَمُدّه الشعرُ بالطرب والألحان ، فمن ثَمَّ نشـــأ الارتباطُ الحميمُ بينه وبين الشعر .

و لم يكن الاهتمام بالشعر فائقاً النثر وحسب بل إنّ الاهتمامَ بالشعر صَاحَبَه اهتمامٌ بالنقد وهو اهتمامٌ نشأ منذ القديم انطباعياً ذوقيّاً يعتمدُ على السليقة والفطرة ، وتدرّج بعد ذلك إلى أن وصل اليومَ إلى غايةٍ سامية وأغوار عميقة .

ومن الطبيعي إذا كان الاهتمام بالنثر يقصر دون الاهتمام بالشعر ، فإنّ ذلك سينعكس على تطوّر النقد ، ومن هنا فقلة الاهتمام بالنثر تؤدي بطبيعة الحال إلى قلة الاهتمام بنقده ، وهذا أمر ملاحظ في الشعر مثلاً ، فقد

ينظر: د.وليد قصاب ، من صيد الخاطر في النقد الأدبي ، دار البشائر ، دمشق – سوريا 1424هـ ، ص : 78.

كما يرى بعض النقاد في علم الجمال أنّ النثر إنما كان أسبق في الوجود ، فهو أكبر عمراً من الشعر ، إلا أن الشعر فرض سيطرته وانفرد بالجمال وذلك بحكم ترنيماته وأوزانه ومحاولة النثر – بالسجع – محاكاته والوصول إلى توهجه .

ينظر : روز غريب ، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1952م ، ص : 111.

عكس تطور الاهتمام بالشعر تطوراً للنقد منذ القديم عندما كان يعتمد على الانطباعية إلى أن وصل إلى مرحلة المنهجية والاتجاهات في عصرنا هذا.

والنثر الذي لم يحظَ بوافر عنايةٍ واهتمام من قِبَل المبدعين والنقاد مقارنةً بالشعر ، لم يكن ليعليَ من شأن نقد النثر في القديم بما أنه لم يتلق الشغف الذي حاز الشعر أكثر جوانبه.

وحتى لا نحكم على نقد النثر بشكلٍ عامٍ فإنّ النقدَ النثريَ الحديثَ يختلف تطوراً ومنهجاً وواقعاً عن النقد النثري القديم لاسيما في بعض الفنون النثرية المستحدثة كالرواية ، والمقالة ، والقصة القصيرة والخاطرة تلك التي نالت اهتمام كثير من النقاد المحدثين بتنوع مشاربهم واتجاهاتهم.

ويمكن القول أنّ التباينَ في نقد النثر بين القديم والحديث ناشئٌ عن تنوّع الأجناس الأدبية وتداخلها فيما بينها ، واستحداث ألوان جديدة منها في العصر الحديث ، وتدفق الاتجاهات النقدية أدّى كلّ ذلك إلى ظهور نوع من التفاوت في الدرس النقدي بين القديم والحديث ، وسأحاول في هذه الورقة تلمّس بعض الفروق والخصائص النقدية للنثر القديم والحديث ، مستهلاً ذلك بالإشارة إلى أبرز الفنون النثرية بشكل عام بين المقاربة والمقارنة.

أولا: الفنون النثرية مقارنة ومقاربة

نعني بالفنون النثرية هنا تلك الأجناس الأدبية القولية والكتابية التي تعتمد النثرية في الصياغة صفة لها ، ولا نعني بالنثرية هنا الكلام المألوف الذي نتبادله وننطق به ونتعامل معه في حياتنا اليومية فهذه النثرية العامية ، إنما ننشد في النثرية أن تكون أدبيةً خالصةً معتمدةً على الصياغة اللغوية البليغة المؤثرة في وقع المتلقي.

ولقد شكّلت الفنون النثرية في القديم – وتحديداً منذ العصر الجاهلي – أنماطاً متنوعة من الفنون القولية بدأً بالخطابة التي هي الأشهر ، ثم المكاتبات و الرسائل ، والأمثال النابعة بالحكم والوصايا ، وما يسمى آنذاك بأسجاع الكهان ، ثم جاء عصر صدر الإسلام ، وتطورت بعض هذه الفنون كالخطابة والرسائل ، وتوشّحت بوشاح الدين الجديد والدعوة إليه ، وبعضها الآخر بقي على ما هو عليه ، وإن تأثر بالروح الإسلامية كالأمثال والحكم والوصايا ، وبعضها الآخر اندثر ولم يعد له ذكرٌ كأسجاع الكهان ، وبعضها الآخر استُحدِث في العصور الإسلامية المتلاحقة كالمقامة مثلاً.

على أنّ المسرحية تعتبر من أقدم الفنون النثرية قاطبةً ، فقد كانت حاضرةً زمنَ الفراعنة ومثّلت لنا بعض آثار الأدب المصري القديم[٢]، كما تبع

---

[٢] للتعرف على آثار المسرح عند قدماء المصريين مثلاً ينظر : د. محمد مندور ، المسرح ، د.ط ، نهضة مصر ٢٠٠٤م ، ص: ٩ – ١٥

وللتعرف على بعض أنواع المسرحية ولغتها وإطارها العام ينظر: د. عز الدين إسماعيل ، الأدب وفنونه "دراسة ونقد" ، ط/٩ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤٢٥هـ ، ص: ١٣٤ –١٤٠.

اليونانيون المصريين قديماً متأثرين بمثل هذا اللون الذي بات جزءاً من أدب الإغريق وحضارتهم ، وعرِف بهم أكثر من غيرهم.

ولم يكن للمسرح – بعد ذلك – وجود في الأدب العربي القديم ، ولم يظهر إلا في عصر النهضة الحديث على يد أحمد شوقي ، وعلي أحمد باكثير ، وتوفيق الحكيم وأمثالهم ، فأضفوا على المسرح لمسة عربية خالصة ، وقيمة فنية بارزة[٣] ، وليس هذا مقامُ حديثٍ عن المسرحية فتكفي الإشارة.

والفنون النثرية التي ألمحنا لها – خلا المسرحية – سارت في العصور الإسلامية متوهجةً ومشرقةً حتى العصر الحديث ، كما جدت فنونٌ نثريةٌ أخرى استُحدِثت بعد ذلك ، فظهرت المقالة بأنواعها والرواية باتجاهاتها ، والقصة بأشكالها الطويلة والقصيرة والقصيرة جداً ، إضافةً إلى ما يسمى بالخاطرة أو الخواطر ، وهو فنٌ جميلٌ غفل عنه المحدثون مبدعون ونقاد ، ولم يولوه أدنى عناية ، حتى ضيقوا في تسميته ، وخلطوه بما أسموه المقالة الأدبية ، أو الإبداعية.

---

[٣] للاستزادة حول هذا الفن وأعلامه ونصوصه في العصر الحديث ينظر: المصدر السابق ، ص:١٤١-١٤٩.

وينظر أيضاً : د. عبد القادر القط ، من فنون الأدب "المسرحية" ، د.ط ، دار النهضة العربية ، بيروت١٩٧٨م.

كما لَبِسَت بعضُ الفنونِ النثرية ثوباً جديداً في عصور ما قبل النهضة ، كما في أدب الرَحلات والسير الذاتية، وقد شهدت تلك الفنون تطوراً ملموساً في القرن العشرين الميلادي والعَقد الذي يليه على نحو ما سنلمح له إن شاء الله.

وتتشابه بعض الفنون النثرية فيما بينها قديماً وحديثاً ، وقد تمتزج ضمن النص الواحد محدثةً في ذلك ما يسمى بتداخل الأجناس أو التداخل الأجناسي[٤] وهو مبحث شائك في الدرس النقدي للنثر إلا أنه في مقابل ذلك يمنح الدارسة عمقاً وثراءً بفضل تنوع الأجناس وتداخلها فيما بينها مما ينتج عنه تزاحم في التداعيات النقدية التي تحتاج حينها إلى دقة بالغة في التناول والعرض.

وإذا تأملنا التشابه بين القصة والرواية مثلاً ، أو الرسالة والخطبة ، أو الوصايا والأمثال ، أو المقالة والخواطر ، أو المذكرات اليومية والسيرة الذاتية ، أدركنا أنّ هذا التوافق قد يحيل النص الواحد إلى نصوص متعددة ومتدفقة ، وهو ما فطنت له بعض الدراسات النقدية الحديثة على نحوٍ ضئيل.

---

[٤] أشارت الباحثة بسمة عروس في أطروحتها للدكتوراة (مطبوعة) عن امتزاج الأجناس واختلاطها وهو ما اصطلحت عليه تجوزاً بتفاعل الأجناس ، وعنونت أطروحتها بهذا المسمى النقدي الجديد في دراسة النثر، وقد تحدثت في هذا المقام عن صدور الأجناس الأدبية على اختلاف أنواعها وأنماطها وأشكالها عن أصل واحد أو سلالة واحدة دالة على العرف الأجناسي الذي ينتظم جملة الأجناس برمتها.
يراجع : بسمة عروس ، التفاعل في الأجناس الأدبية " مشروع قراءة لنماذجَ من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث إلى السادس هجرياً ، د.ط ، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، منوبة – تونس٢٠٠٧م ص : ١٣٧.

ويمكن القول بأنّ التداخل الأجناسي بين الفنون النثرية مدعاةٌ لإعادة النظر في نصوص النثر القديم إن كان في الرسائل ، أو الخطب ، أو الوصايا ، كما أنه جانبٌ مهم في دراسة الفنون النثرية الحديثة كالرواية ، والمقالة ، والقصة القصيرة ، والخواطر ونحوها من ألوان النثر المتجدد.[٥]

ثانياً: واقع الرسائل الأدبية ونقدها قبل القرن العشرين

قبل أن نتطرق إلى واقع الدرس النقدي للرسائل لابدّ من الإشارة إلى أن لفظة (الرسائل)[٦] اكتسبت قديماً أشكالاً عدّةً من المصطلحات ، فأطلق عليها مثلاً : المكاتبات ، والمخاطبات والجوابات ، والمراسلات ، والترسل ، والترسيل ، والكتب ، والمكاتبات الرسائلية ، ونحو ذلك.

---

[٥] الحديث عن الفنون النثرية المتجددة قد يطول ، فإضافة إلى ما ألمحنا إليه من فنون ، هناك فنون أخرى بدت مثأثرةً بتطور وسائل الاتصال كالحديث الإذاعي ، والحوار التلفازي ، والمحاضرات الأدبية ونحوها. ينظر: د .عبد الرزاق حسين ، فن النثر المتجدد ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء – السعودية ١٤١٩هـ ص: ١١.

[٦٦] وحين ننظر للحد اللغوي والاشتقاقي لمادة (رسل) فإننا بإزاء مادةٍ أجمعت أكثر معاجم اللغة على توحد دلالالتها ، وتنوع لفظها . ينظر مثلاً : ١- ابن منظور ، لسان العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان١٤٢٤هـ ، ٣٣٥,/١١

٢- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ط/٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان١٤٢٤هـ ص:٩٢٥

٣- الزمخشري ، أساس البلاغة ، د.ط ، دار الفكر، بيروت – لبنان١٤٢٤هـ ، ص:٢٣١.

وأيّاً كانت هذه المسميات فهي تدور في فلكٍ فنيٍّ كتابي نشأت منذ أن استقرت المدنية ونضجت أدواتُها ، واكتملت أسبابُها في عصر صدر الإسلام وما بعدَه إلى أن أصبحت مذهباً كتابياً ذا أساليبَ معينةٍ ، واتجاهاتٍ مخصوصةٍ ، فصارت الرسائلُ فنّاً نثرياً قائماً بذاته له أصحابُه وأربابُه ، وكتابُه ودواوينُه ، وطرقه وأنواعه ، وشكّلت بذلك تطوراً في الحياة ، وازدهاراً في الكتابة.

ولو انتقلنا إلى الحد الأدبي للرسائل عند نقاد القرن الثالث الهجري وما بعده فإننا نجد بعضهم يطلق عليها مسمى المكاتبات ويقصد بها الرسائل ، ولذلك لم أجد – حسب نظرتي المتواضعة — في كتب النقد وأدب الكتّاب قبل تلك الفترة إلا إشاراتٍ وتلميحات حول المكاتبات والمراسلات من حيث إنشائها لا من حيث نقدها وتحليلها ، والتفريق بينها وبين الفنون النثرية الأخرى ، والوقوف عند حدها اللغوي والأدبي.

والترسل إنما هو: "فنُ إنشاء الكلام المنثور ، وحسنُ صياغته وتأليفه للوفاء بأغراض المراسلة المختلفة ، وليس يعدّ في نظر النقاد نوعاً أدبياً إلا إذا كانت الغاية الفنية أو البلاغية ظاهرة فيه ومقصودة واتجه إلى الجمهور ، ولم يكن مقصوراً على المخاطب بالرسائل فحسب" [٧].

وإذا بحثنا في كتب النقد في تلك الفترة فإننا لا نجد من ينص على تسمية الرسالة أو الترسل بهذا المسمى إلا عند أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم

[٧] محمد خير شيخ موسى ، النثر الفني في النقد الأدبي ، مكتبة ابن كثير، الكويت١٩٩٧م ، ص : ٧٤.

بن سليمان بن وهب الكاتب (ت335هـ) في كتابه (البرهان في وجوه البيان) فقد وضع حداً لغوياً اشتقاقياً لهذا المصطلح ، ثم تهافت النقاد والكتاب من بعده يستخدمون ألفاظ الترسل والترسيل والرسالة والمراسلات على صعيد الحد والنقد والإنشاء.

يقول ابن وهب الكاتب في تفصيله للكلام المنثور: "وأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلاً ، أو احتجاجاً ، أوحديثاً ، ولكل واحدٍ من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه "[٨].

ويتحدث عن الترسل بعد ذلك فيقول: "والترسل في نوعٍ من هذا وفي الاحتجاج على من زاغ من أهل الأطراف ، وذكر الفتوح ، وفي الاعتذاريات والمعاتبات ، وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات"[٩].

فقد بين بذلك هدف الترسل وجهته، ثم أشار إلى بعض موضوعات الترسل التي يعمد إليها الكاتب حال ترسله.

وجاء أبو هلال العسكري (ت359هـ) بعد ذلك وكانت له مساهمة نقدية في مجال الرسائل وكانت طريقته في ذلك مقارنة بين الخطبة والرسالة ، وهو ملمحٌ نقدي جديد ظهر عند نقاد ذلك العصر.

---

[٨] ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، جامعة بغداد ١٣٨٧هـ ، ص : ١٩١.

[٩] ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، ١٩١.

يقول أبو هلال : " واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزنٌ ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل (...) ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة (...) ومما يعرف أيضاً من الكتابة والخطابة أنهما مختصان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار"[١٠].

إنّ مثل هذا التحليل النقدي يكشف النقاب عن المفهوم العام للرسائل والخطب ، وهو ما يشير إلى أن نقاد ذلك العصر بدأوا يترسمون ملامح النقد العامة للرسائل ، ويوضحون سماتها ، ويبينون مقاصدها وأشكالها.

وإذا كان أبو هلال العسكري قد جعل الرسالة والخطبة متشاكلتين فإن ابن وهب الكاتب قد وضح الفارق الفني بين الرسالة والخطبة حينما قال : " فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تحكيكها وتكرر النظر فيها ، وإصلاح خلل إن وقع في شي منها ، ثم هي نافذة على يد الرسول ، أو في طي الكتاب ، فقد كفي صاحبها المقام الذي ذكرناه ، والحصر الذي وصفناه ، فلهذا صار الخطيب إذا ساوى المترسل في البلاغة كان له الفضل عليه ، كما كان الفضل للشاعر إذا ساوى المتكلم في تجويد المعاني وبلاغة اللسان "[١١].

---

[١٠] أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ط/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان١٤٠٤هـ ، ص:١٥٤.

[١١] ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، ١٩٣.

ومن نقاد ذلك العصر من اهتم بشكل الرسالة وديباجتها قبل كتابتها وأثناء الكتابة وبعدها فتحدث مثلاً عن حسن الخط وقبحه ، ووصف القلم وما قيل فيه ، والدواة والكُرسُف[١٢] والقرطاس ونحو ذلك ، ثم ترتيب الكتاب ، وعرضه ، وطيه ، وختمه ، ورد الجواب ونحو ذلك ، ويعتبر أبو بكر الصولي (ت 336هـ) من النقاد الأوائل الذين نهجوا هذا النهج [١٣].

ولعل من أشهر نقاد الرسائل في القرن الرابع والخامس الهجريين بالإضافة إلى ما ذكرنا : أبو جعفر النحاس ، وابن درستويه ، وأبو عبد الله الحميدي في كتابه (تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل) وهلال بن المحسن الصابئ في كتابه (رسوم دار الخلافة) وعلي بن خلف الكاتب في (مواد البيان) وقد سار أولئك على سنن الصولي في الاهتمام بنقد الرسائل من حيث شكلها الخارجي ، وإطارها الجمالي الفني ، وصفات كتابها وأدواتهم ودواوينهم [١٤] .

ثم سلك نقد الرسائل بعد ذلك مسلك المفاضلات بين الكتّاب نظراً لكثرة كتّاب ذلك العصر وتنوع مذاهبهم ، وكثرة المدارس الترسلية خصوصاً أنّ مدرسة عبد الحميد الكاتب قبل ذلك ، ومدرسة ابن المقفع ، ومدرسة

---

[١٢] الكُرسُف : بضم الكاف والسين : القطن والصوف والقماش ونحو ذلك مما يكتب عليه.

[١٣] ينظر كتابه : أدب الكتاب ، الصولي ، تحقيق : سميح إبراهيم صالح ، دار البشائر ، دمشق١٤٢٦هـ .

[١٤] للتعرف على بعض أعلام نقاد الرسائل في القرنين الرابع والخامس ينظر : فاطمة عبدالله الوهيبي ، نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، د.ط ، دار العلوم للطباعة١٤١١هـ ، ص : ١٦٥ – ١٧٦.

الجاحظ كانت قليلة التأثير على الكاتبين ، فلم تزخر بالكتّاب المتأثرين بمنهجها كمدرسة ابن العميد والصاحب بن عباد في القرن الرابع الهجري تلك المدرسة التي ولدت كتّابا أفذاذاً في منهج التصنيع الكتابي والزخرف اللفظي ، فخرج لنا أمثال أبي العلاء المعري ، وأبي إسحاق الصابئ وبديع الزمان الهمذاني ، وعبد الواحد بن نصر المخزومي الملقب بالببغاء ، وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي العباس الضبي ، وأبي الفضل الميكالي ، وعلي بن محمد الإسكافي ، وأبي الفتح ذي الكفايتين ، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير ، وعبد العزيز بن يوسف ونحوهم.

ويعد أبو منصور الثعالبي من الذين أقاموا منهجاً في المفاضلات بين كتاب حقبته ، وما قبل عصره بقريب ، وكتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) يطفح بالأعلام المترسلة ، والشخصيات الناثرة إضافة إلى شعراء تلك الفترة ، فهو كتاب يترجم للأعلام على طريقة المفاضلات الشعرية النثرية وقد تميز بأنه أعطى النثر نصيباً وافراً من الاهتمام ولا سيما الرسائل[١٥].

ومما يلفت الانتباه في واقع الدرس النقدي للرسائل في القرن الرابع الهجري وما بعده أن ظهرت الرسائل النقدية التي تناولت جانب الشعر ، فاستُخدِم الترسل بطريقةٍ بلاغية ، ووُظِّف توظيفاً نقدياً فظهرت مثلاً رسالة

[١٥] يراجع كتابه : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان١٤٢٠هـ.

الكشف عن مساوىء شعر المتنبي[١٦] للصاحب بن عباد ، كما ظهرت رسائل الحاتمي النقدية وهي أيضاً في شعر المتنبي ، وظهرت أيضاً رسائل الانتقاد لأبي شرف القيرواني ، ورسائل أبي العلاء المعري النقدية ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي ، ورسالة قانون البلاغة في بدايات القرن السادس الهجري.

وهناك كتاب جدير بالمتابعة والاطلاع لمؤلفه أستاذي الذي شرفت بالتلمذة على يديه في المرحلة الجامعية الأولى وهو الدكتور حسين علي الزعبي وعنوان الكتاب: (النقد في رسائل النقد الشعري) جمع فيه أشهر الرسائل النقدية التي تناولت شعر الشعراء وبعض خصائص شعرهم ، وسرقاتهم ومحاسن شعرهم ومساويه[١٧].

ومما يمثل تلك الفترة من الكتب النقدية المهتمة بأدب الرسائل كتاب (القانون في ديوان الرسائل) لابن الصيرفي ، وقد ركّز فيه على الرتب الكلامية،

---

[١٦] يشار إلى أن الصاحب في رسالته هذه تحامل على المتنبي ، وإن كانت بعض المآخذ التي نبه عليها صحيحة إلا أنها من مسترذل شعر المتنبي ولا يمكن أن تقلل من شأن شاعر عظيم كالمتنبي.

[١٧] ينظر : د.حسين علي الزعبي ، النقد في رسائل النقد الشعري حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان١٤٢٢هـ.

ومكان إصدار الرسائل ، وما ينبغي أن تكون عليه ، وهيئة المترسل ونحو ذلك[١٨].

وسار فن الترسل فيما بعد القرنين الخامس والسادس الهجريين على منهج الزخرف اللفظي والصياغة المتأنقة المعتمدة على السجع ، ثم ظهر في الأندلس في أواسط القرن السادس الهجري أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي (ت550هـ) في كتابه النقدي (إحكام صنعة الكلام) الذي تناول الرسائل تناولاً نقدياً بارعاً سلك فيه منهجاً تطبيقياً ، تعمق من خلاله في تحليل الجانب البنائي ، فتحدث عن عنونة الرسالة مثلاً ، ثم افتتاحها ، وما ينبغي أن تكون عليه ، ثم أضاف رأياً نقدياً حديثاً حينما فصّل القول في تقسيم الخطاب الترسلي إلى مصنوعٍ ، ومرصّع ، ومغصّن ، ومُبتدَع وطبّق هذه الأصناف الترسلية على كتّابٍ انتهجوها [١٩].

ثم ظهرت بعد ذلك الكتب النقدية قي القرن السابع الهجري حيث نرى كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير (ت637هـ) وتميز بأن وضع للكتابة شروطاً بلاغية ، وأركاناً نقدية وقوانينَ أدبية لمن يعتزم الترسل ، فحدّد أصولاً للكاتب والرسالة وما يتعلق بذلك من التركيز على

---

[١٨] ينظر : ابن الصيرفي ، القانون في ديوان الرسائل ، تحقيق : د.أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة١٤١٠هـ.

[١٩] ينظر : إحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم الكلاعي ، تحقيق : د.محمد رضوان الداية ، ط/٢ ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٥هـ ، ص : ٦٣ -١٦٠.

جانب الألفاظ والمعاني ، ومراعاة الرتب الكلامية [٢٠] ، وتناول تفصيل الهيكل العام للرسالة في بنائها الافتتاحي والرئيسي والنهائي[٢١].

وفي القرن الثامن الهجري يطالعنا كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) لشهاب الدين الحلبي (ت725هـ) حيث عمد في هذا الكتاب إلى الاستشهاد من رسائله ، والتطبيق عليها من الناحية البلاغية ، وكان قد صدّر كتابه بمباحثَ بلاغيةٍ ، وختمه بالحديث عن خصائص التقاليد وكتابة التواقيع ونحوها[٢٢].

ثم جاء بعده القلقشندي(ت821هـ) في كتابه الشهير (صبح الأعشى)[٢٣] والذي نقل كثيراً منه من كتاب (مواد البيان) لعلي بن خلف الكاتب الذي أشرنا إليه قبل ذلك.

ولا نكاد بعد ذلك نجد من يتناول الرسائل والمكاتبات بالنقد والتقويم ، أو يخصص لذلك مؤلفاً نقدياً عن الكتابة وأدواتها وخصائصها ورتبها المقامية

---

[٢٠] لابد من الإشارة إلى أن ابن المدبر الكاتب المترسل البليغ (ت٢٧٩هـ) من أوائل الذين تحدثوا عن الرتب الكلامية في الخطاب الرسائلي وذلك في بدايات القرن الثالث الهجري وإن سبقه الجاحظ في ذلك إلا أن ابن المدبر تميز بتسمية نقدية لهذا الجانب وهي مايعرف بـ(شعاع البلاغة) ويعني بذلك الرتب الكلامية.

[٢١] ينظر: ابن الأثير، المثل السائر ، د.ط ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت١٤٢٠هـ ،١/٨٧-٩١.

[٢٢] ينظر: شهاب الدين الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، د.ط.

[٢٣] ينظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ، د.ط ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٠هـ.

إلى أن نصل إلى العصر الحديث أو ما يسمى بعصر النهضة ، وهو ما سنفرد له الجزء الثالث من هذه الورقة.

ثالثاً: واقع الرسائل الأدبية ونقدها في القرن العشرين

يطلق المتأخرون على هذا العصر عصر النهضة الحديث؛ وذلك لأن الآداب فيه شهدت نقلة نوعية متطورة بلغت من الازدهار شأناً كبيراً ، بعد عصور خمد فيها الأدب ، وأصابه نوع فتور كان للدوافع السياسية أكبر الأثر في ركوده.

وعُرِف الترسل في هذا الزمن بالمراسلات أو الرسائل كما هو الحال سابقاً ، وعرفت المراسلات في مستهل هذا القرن بأنها وسيلة اتصال محدودة يمكن من خلالها نقل الأخبار والأشواق وما شابه ذلك كما هو معروفٌ قديماً ، فلم توجد وسيلة اتصال إعلامية غيرها حتى خرج جهاز التواصل البرقي وهو ما يعرف بـــ (التلغراف)(telegraf)[٢٤] وهو نظام اتصال يبث ويستقبل البرقيات عن طريق إشارات خاصة وذبذبات معينة ، وأول من تنبه لذلك الأمريكي (صاموئيل مورس Samuel morse) منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .

---

[٢٤] والتيلغراف إلى وقت قريب كان يستخدم تجوزاً كمدونة خاصة لكتابة الخواطر الوجدانية أو الرسائل الشخصية بين الأصدقاء والأقرباء وكأنه ديوان يخصصه صاحبه لمن يكتبون له أو يكتب لهم ، ولعل النساء والفتيات تحديدا أكثر اهتماما به إلى وقت قريب قبل ظهور الهواتف النقالة والحواسيب المحمولة ، وإن كان داخله بعض تحريف في اللفظ اللاتيني فحرف اسمه من تيلغراف إلى تجراف والصحيح الأول أما الثاني فقد يكون من باب الاختصار.

لكن المراسلات التي نحن بصددها هي تلك التي قامت بين الأدباء وأصدقائهم ، أو المعلمين وتلامذتهم ، أو الآباء وأبنائهم ، ونحو ذلك ، وكانت المراسلات تأخذ أكثر من مسمى؛ فكانت تعرف مثلاً بالجوابات أو المكاتيب ، وفي وقتنا الحاضر يطلق عليها البعض – حتى عند العوام – مكاتيب ومكتوب وكتاب ، وفي أوساط العامية الدارجة يطلقون عليها تجوزا: خط ، ويعنون به الخط الذي ينتظم هذه المراسلات.

وقد شهد هذا العصر طفرة هائلةً في فن الرسائل الأدبية حيث لمعت في سماء هذا الفن أسماءٌ عديدة نذكر من أشهرها: مي زيادة ، وجبران ، والعقاد وكانت بين هؤلاء الثلاثة مراسلات أدبية رائعة[٢٥] ، كما ظهر لنا أمثال: الرافعي ، وأحمد تيمور باشا ، وأمين الريحاني ، ومحمد كردي علي والعلامة

---

[٢٥] للتعرف على بعض أشكال هذه المراسلات وأطوارها ينظر مثلاً :

١- مي زيادة وأعلام عصرها " رسائل محفوظة لم تنشر ١٩١٢ – ١٩٤٠ ، جمع وتقديم وتحقيق : سلمى الحفار الكزبري ، مؤسسة نوفل ، بيروت – لبنان ١٩٨٢.

٢- روز غريب ، مي زيادة التوهج والأفول ، مؤسسة نوفل ، بيروت – لبنان ١٩٧٨.

٣- جبران واللغة العربية ، إميل بديع يعقوب ، منشورات جروس ، طرابلس – لبنان ١٩٨٥.

٤- حسين حمدان العساف ، مراسلات العقاد – مي زيادة ، المجلة العربية ، العدد ٤٠١ ، الرياض السنة ٣٤ ، ص : ٢٦ – ٣٠.

٥- رياض حنين ، أحاديث عن جبران ، مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٨٣.

٦- محمد محمود حمدان ، من رسائل العقاد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٨هـ.

وللتعرف على بعض أشهر المترسلين في العصر الحديث وأنواع رسائلهم وخصائص أساليبهم ينظر مثلاً : أحمد السماوي الأدب العربي الحديث " دراسة أجناسية " ، مركز النشر الجامعي ، تونس ٢٠٠٢م ، ص : ٥٢.

الكرملي ، والألوسي ، وإبراهيم اليازجي ، وقسطاكي الحمصي ، والزيات ، وطه حسين وسهير القلماوي ، وعبد الغني الخليلي ونحوهم.

ولعل اللافت للانتباه في هذه الرسائل الأدبية إضافة إلى شكلها الأدبي الأنيق ، ومضمونها الجميل ، إقبال بعض الشعراء المشاهير عليها يكتبون بها ، ويتفننون فيها لا سيما أنها وسيلة تواصل محدود آنذاك ، فقد كانت هناك مراسلات جميلة بين شعراء هذا العصر أمثال: بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ، ونزار قباني ، وأبي القاسم الشابي ، والزهاوي ، وجورج صيدح ، والجواهري ، وإيليا أبو ماضي ، وميخائيل نعيمة ، ونحوهم [٢٦].

والمراسلات في العصر الحديث شهدت تنوعا في الأشكال والموضوعات ما بين المراسلات الإخوانية الوجدانية[٢٧] ، والرسائل الدينية [٢٨]،

---

[٢٦] وهناك كتاب قيم جمع نصوصا من المراسلات بين الشعراء وبعض صورهم (الفوتغرافية) مع تأريخ لها . ينظر : ناجي عواد ، من أدب الرسائل ، د. ط ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٧٧م . وانظر أيضاً : رسائل إلى محمد الصباغ ، تقديم : د . إحسان عباس ، دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٨٢م ، وهي عبارة عن مجموعة من المراسلات كتبها بعض الشعراء مثل : ميخائيل نعيمة ، وبولس سلامة ، وإيليا أبو ماضي وشفيق معلوف .

[٢٧] مما يمثل الرسائل الإخوانية على سبيل المثال في هذا العصر : المراسلات بين العقاد ومي زيادة وجبران في غرض الغزل والتشوق والحنين وقد أشرنا إلى أثر من ذلك .

ومن ذلك مثلاً : رسائل في المودة والعتاب والاعتذار والرثاء للشيخ أحمد بن الشيخ علي آل شيخ مبارك ، وهي رسائل يغلب عليها الجانب الوجداني الجميل ، وهي في شكلها تذكرنا ببعض أشكال الترسل القديم في البدء والمتن والختم ، وقد راسل فيها طائفة من الأدباء والنقاد والمفكرين والسياسيين أمثال : عبد الوهاب عزام ، وحافظ وهبة ، والشيخ سحيم بن حمد آل ثاني ، والأديب الكبير حمد الجاسر . ينظر

والرسائل السياسية [٢٩] ، إضافة إلى الرسائل الأدبية التي كتبت لتوضيح مسألة في الأدب أو اللغة أو نحو ذلك[٣٠].

واصطبغ الترسل في العصر الحديث ببعض ألوان مستحدثةٍ ميّزته عن الترسل قديماً في شكله حيناً ، وفي مضمونه حيناً آخر ، فقد تنوعت ثقافات الكاتبين ، وظهرت آثارها على رسائل ذلك القرن فضمّن بعضهم مثلاً تأثره باللغة الإنجليزية وآدابها وبعض أعلامها المشاهير أمثال (وليام شكسبير William Shakespeare ت1616م) وبعضهم الآخر مثلاً أفصح عن كتابة

: أحمد بن الشيخ علي آل شيخ مبارك ، رسائل في المودة والعتاب والاعتذار والرثاء ، مطابع الحسيني ١٤٢٧هـ.

[٢٨] مما يمثل ذلك مثلاً رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إلى بعض علماء نجد وأمراء القبائل والمناطق المجاورة لنجد وقد اتسمت رسائله بتوضيح منهجه في دعوته إلى نبذ الخرافات والمخالفات التي تشوب العقيدة. ينظر مثلاً : عبد الرحمن محمد العاصمي ، الدرر السنية ط/٦ ، ١٤١٧هـ .
ينظر: محمد بن عبد الوهاب ، الرسائل الشخصية ، تعليق وتصحيح : صالح بن فوزان الفوزان ، ومحمد صالح العليقي ، د.ط ، المركز الإسلامي للطباعة د.ت.

[٢٩] ومما يمثل ذلك رسائل الوزير الحسن بن خالد الحازمي وهو من أعلام هذا العصر المغمورين عاش في تهامة ، ذو شرف وعلم وسياسة ، له رسائل سياسية كثيرة بعث بها إلى الأمير عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز. ينظر : من رسائل الوزير الحسن بن خالد الحازمي ، تحقيق : د.عبد الله بن محمد أبو داهش ، أبها ١٤٠٧هـ.

[٣٠] من ذلك مثلاً رسائل الرافعي إلى تلميذه محمود أبي رية حينما كان يكتب له مبيناً أحياناً ، ومعلماً أحياناً وموجهاً أخرى ، وفيها تظهر روح الرافعي الجميلة ، وملاطفته ونصحه.
انظر : رسائل الرافعي ويليه الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب أنستاس الكرملي د.ط ، الدار العمرية ، د.ت .

الشعر بالفرنسية ، ونلاحظ هذا في المراسلات التي جرت بين مي والعقاد وجبران[٣١] .

كما حدث في الهيكل العام لبناء الرسالة نوع تجديدٍ بدا واضحاً في افتتاحيات الرسائل ، كما في الرسائل المكتوبة إلى مي زيادة ، حيث يظهر فيها ألفاظ (يا صديقتي – عزيزتي – آنستي) وأحياناً التصريح باسمها الحقيقي (ماري) ، وفي الخواتيم مثلاً تظهر لنا ألفاظ دعائية تختلف عن الترسل القديم في مثل قول بعضهم: (والله يحرسك – والسلام على روحك الجميلة – ها قد غمر المساء – وألف تحية لك – صديقك المخلص) ونحوها من العبارات[٣٢].

على أن من المحدثين في هذا القرن من لم ينأ عن شكل الرسالة القديم ، بل بقي متأثراً بها يطبقها في مكاتباته ومراسلاته السياسية والإخوانية ، وينطبق هذا مثلاً على أمين الريحاني في رسائله وأجوبته مع الملك عبد العزيز رحمه الله ، حيث شهدت رسائله التزاماً بشكل الرسالة القديم من حيث الاستهلال والعرض والاختتام ، وإن أضاف إليها التأريخ والتوقيع[٣٣].

---

[٣١] راجع حاشية ٢٥ ، ص : ١١.

[٣٢] وهناك كتاب لمؤلفة أجنبية طرحت فيه أفكاراً جديدة وجميلة فيما يخص أشكال الافتتاح والخواتيم في الرسائل المعاصرة وبعض أساليبها وجملها المنتقاة التي أسهمت في تقنية أعلى للكتابة الترسلية. ينظر : روزالي ماجيو ، كيف تقول ما تريد ، تعريب : هالة النابلسي ، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤٢٥هـ.

[٣٣] ينظر : أمين الريحاني ، الرسائل المتبادلة بين الملك عبد العزيز آل سعود وأمين الريحاني ، دار أمواج بيروت – لبنان ٢٠٠١م.

ويعدّ التداخل بين الأجناس الأدبية ، والتشابه فيما بينها والامتزاج سمةً تميز نصوص الترسل في هذا العصر ، ولهذا فقد وجدنا تداخلاً بين اليوميات ووصف الرحلة مثلاً[٣٤] داخل إطار الرسائل ، وقد بدا ذلك واضحا بشكل يدعو إلى الدراسة والبحث.

ومثل هذا الامتزاج حدث بين الرسائل والخواطر حيث لاحظنا هذا الخلط من واقع استقراء بعض المصنفات لا سيما عند الرافعي في بعض مؤلفاته كأوراق الورد التي تصفحناها فوجدناها في كثير منها أقرب إلى الخواطر منها إلى الرسائل ، فلا نجد فيها عنصراً تبادلياً بين أشخاص مخصوصة بالرسائل إلا فيما ندر[٣٥] أما رسائل الأحزان [٣٦] فالتوجيه التبادلي فيها يكاد يكون أكثر ، وإن كانت هي الأخرى تميل إلى روح الخاطرة ، إلا أنها بشكل يختلف عن الرسائل التي عهدناها عند مي زيادة مثلاً والعقاد وجبران والمنفلوطي وبعض رسائله إلى تلميذه أبي رية .

---

[٣٤] من ذلك رسائل (جير تروود بيل) حينما زار فلسطين والأردن وسورية وحائل . ينظر : رسائل جير تروو دبيل ، ترجمة : رزق الله بطرس دار الوراق ، لندن ٢٠٠٨م ، وهي رسائل تدل على ارتباط أدب الرحلة بالرسالة حيث استخدمه الرحالة والمستشرقون في هذا العصر متبادلين تصوراتهم ومشاهداتهم مع أصدقائهم وأهلهم ، ولهذا فقد أثروا هذا الفن وأضافوا إلى الدرس الإنساني في التاريخ والجغرافيا والأدب.

[٣٥] ينظر : الرافعي ، أوراق الورد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٦هـ.

[٣٦] ينظر : الرافعي ، رسائل الأحزان ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٥هـ.

ومما يلاحظ من ألوان حديثة داخلت أساليب الترسل في هذا العصر ما نشهده من تنوع في الرتب الكلامية داخل نطاق الرسالة ، كتلك المراسلات بين الآباء وأبنائهم ، والآباء وبناتهم ، وهو لونٌ وإن كانت له بعض آثارٍ في الترسل القديم إلى أنه تميز في هذا العصر بلون من المكاشفات التي يكون فيها الأب مستلهماً ، منتقلاً من التوجيه والنصح إلى تبادل الشعور ، وبث الشجون ، فيكشف لابنه أو ابنته عن أعباء الحياة الوكيدة التي نالت من راحته ، ويمثل هذا اللون مثلاً رسائل الشاعر حمزة شحاتة إلى ابنته شيرين [٣٧] ، ورسائل سعد البواردي إلى ابنته نازك [٣٨] ورسائل أحمد أمين إلى ابنه[٣٩] ، ورسائل عبد العزيز التويجري إلى ابنه أيضاً[٤٠].

رابعاً: واقع الرسائل الأدبية ونقدها في الحاضر والمستقبل

في ظل ما تشهده ساحة النقد العربي من حركةٍ دائبة وتطوّر ملحوظ في نقد الآثار الأدبية؛ كان للنقاد المحدثين في هذا العصر أثرٌ ملموس في صنع إطارٍ متميز لنقد النثر ، إلا أن الفنون الحديثة كالرواية والقصة والمقالة قد استأثرت

---

[٣٧] ينظر : حمزة شحاته ، إلى ابنتي شيرين ، دار قهامة ، جدة ١٤٠٠ هـ .

[٣٨] ينظر : سعد البواردي ، رسائل إلى نازك ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي د.ت.

[٣٩] ينظر : أحمد أمين ، إلى ولدي ، ط/٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

[٤٠] ينظر : عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ، رسائل إلى ولدي " حتى لا يصيبنا الدوار" ، الدار العالمية للنشر ، كامبيردج ، لندن ١٩٨٣م.

بالنصيب الأوفى من حظ النقد ، في حين لم تنل الرسائل قليلاً من هذا الاهتمام إلا في أشكال يسيرة لا تمثل أثرا.

وقد سار نقد المحدثين للرسائل في هذ العصر على جانبين:

أولاً: نقد المحدثين للترسل القديم: وهذا هو الأثر الأميز والأكثر في التناول النقدي للرسائل ، وإن كان هذا التناول من خلال الرسائل العلمية [٤١] أكثر من المؤلفات العامة ، ويمكن أن نستشهد بواحد ممن تعرضوا للرسائل في الأدب القديم على سبيل المثال لا الحصر ، وهو الدكتور إحسان عباس [٤٢] الذي قام بنقد كثير من الرسائل في الأدب القديم كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وكنقده لرسائل التوحيدي ، ورسائل ابن حيان الأندلسي ، ورسائل

---

[٤١] ومن ذلك مثلا : ١- أدب الوعظ في النثر حتى نهاية القرن الرابع الهجري " جمعاً ودراسة " لعبد الله بن حميد ، وهي رسالة دكتوراة نوقشت في جامعة الإمام بالرياض ١٤١٣هـ ، وقد أفرد الباحث فيها باباً مستقلا عن الرسائل جمعا ونقداً حوى كل ما هو من جنس الوعظ في أدب الرسائل في تلك الحقبة.

٢ – رسائل بديع الزمان الهمذاني " دراسة أدبية " لهيفاء راشد الحمدان ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام بالرياض ، عام ١٤٢٧هـ .

٣ – نثر الخلفاء في العصر العباسي الأول لخالد بن محمد الخرعان ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام بالرياض ١٤٢١هـ.

٤ – لغة الجاحظ في رسائله ، مصطفى عيسى الفاغ الأمين ، قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض .

وهذه الرسائل على سبيل المثال لا الحصر.

[٤٢] واخترنا د . إحسان عباس لكثرة خوضه في هذا المجال.

عبد الحميد الكاتب ، والرسائل الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين ونحو ذلك[٤٣].

وممن أحسن في هذا الجانب بطريقة فنية حديثة محمد العمري في كتابه (في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية) فقد تحدث في آخر مباحث هذا الكتاب عن بعض رسائل الصدر الأول من القرن الأول الهجري ، واعتمد في نقده على تلمس وسائل البلاغة الإقناعية وأسسها منذ أرسطو الذي قسم عناصر بناء الخطابة إلى وسائل إقناع بالبراهين ، ووسائل إقناع بالأساليب[٤٤] .

ثانياً: نقد المحدثين للمراسلات الحديثة : وهو جانب وإن كان الخوض فيه يسيراً إلا أن للمغاربة شأنهم البالغ في الاهتمام به[٤٥] ، وقد أضافوا

---

[٤٣] ينظر : عصام حسين إسماعيل أبو شندي ، نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس ، دار الشروق عمان – الأردن ٢٠٠٦م.

[٤٤] ينظر : محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية " الخطابة في القرن الأول نموذجاً " دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ١٤٠٦هـ ، ص : ١٣٩ ١٤٧ ه ، ومنهم أيضا أستاذي الدكتور صالح الهادي بن رمضان في أطروحته للدكتوراة (الرسائل الأدبية) حيث تحدث عن الرسائل الأدبية قديما وعالج كثيرا من قضاياها علاجا نقديا تداوليا . ينظر : صالح بن رمضان ، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم ، ط/ ٢ ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٧م.

[٤٥] وليس الاهتمام بمقصور على المغاربة وحسب ، فللدكتور حلمي القاعود إسهام في هذا المجال فاعل حيث تحدث عن بعض أعلام الترسل الحديث وأشار إلى بعض الخصائص الموضوعية والاجتماعية والإسلامية والسياسية والأدبية ، كما تحدث في باب آخر عن الخصائص الأسلوبية في الصياغة إلا أنه لم

إلى الدرس النقدي الحديث بالتركيز على الجانب اللساني مثلاً ، والجانب التداولي أيضاً ، وإن كان اهتمامهم أيضاً في نطاق الرسائل العلمية أكثر منه في المؤلفات الأخرى ، ومما يمثل ذلك من الباحثين مثلاً : آمنة الدهري في أطروحتها (الترسل الأدبي بالمغرب النص والخطاب) فقد تناولت دراسة حقبةٍ معينة منذ القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن العشرين وكان تناولها من الناحية الأسلوبية والإيقاعية مميزاً ، حيث تعمقت في دراسة مكونات الخطاب وقوانينه وأشكاله وأبنيته[٤٦].

من هنا كان لابد من العكوف على رسائل هذا العصر ، ورسائل القدماء بالنقد والتحليل من خلال تطبيق المناهج الجديدة التي وظفها النقد في هذا القرن في أجناس أدبية مختلفة ، حتى وإن كان النقد تقليدياً كالنقد الانطباعي ، والأخلاقي ، والموضوعي ، والتاريخي ونحو ذلك فالمهم هو كشف النقاب عن هذا الفن ، ومحاولة إعادة النظر فيه ، والتعمق في ما يحويه من جماليات وإبداع ، ثم إن هذا الفن يفتح الآفاق نحو أشكال النقد الأخرى

يكثر من الاستشهاد بالشخصيات الحديثة المترسلة فقد اكتفى مثلاً بالمنفلوطي والرافعي والزيات وعبد العزيز البشري ومحمد عبده وتطرق لغيرهم كأحمد أمين والطهطاوي ونحوهم.

ينظر: حلمي القاعود ، مدرسة البيان في النثر الحديث ، د.ط ، دار الاعتصام ، القاهرة١٩٨٢م ، وهي في الأصل رسالة ماجستير.

[٤٦] ينظر: د.آمنة الدهري ، الترسل الأدبي بالمغرب" النص والخطاب " ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، الدار البيضاء١٤٢٤هـ.

كالنقد الجمالي[٤٧] ، والنقد التداولي ، والنقد الأسلوبي والشكلاني ، والثقافي ، والنصي ، والتفكيكي ، والبنيوي ، والرمزي ، والنفسي ، والاجتماعي ونحو ذلك من المناهج النقدية الحديثة[٤٨].

كما يمكن تطبيق الخصائص الحجاجية للخطاب الرسائلي من خلال البحث عن حركة الخطاب وأبعاده ، ومقاصده سواء كان ذلك في النص نفسه أم في مادته الخيالية التي هي الصورة النفسية المستمدة من المجال الحسي والمقومات الثقافية[٤٩].

وكذلك التركيز على قضايا المتكلم والخطاب ، كالبحث عن آثار الرتب الكلامية في الخطاب الترسلي ، والاهتمام بالجانب المقامي ، ومراعاة أحوال المخاطبين ونحو ذلك[٥٠].

---

[٤٧] ينظر: روز غريب ، النقد الجمالي ، ص : ٥ ، ٢٠ – ٣٣ ، ١١٣ – ١١٤ ، ويمكن التطبيق النقدي على الرسائل الأدبية من خلال تلمس آثار الحسن وعدمه ، وعلاقات التناسب والتناسق ، والتنويع والتدرج ، وتوافق الأجزاء ، والتكرار والتضاد والتصوير ونحو ذلك.

[٤٨] للتعرف على مزيد من المناهج النقدية المعاصرة التي يمكن تطبيقها على دراسة الرسائل. ينظر: د.سمير حجازي ، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر ، دار التوفيق ، دمشق – سورية١٤٢٥هـ.

[٤٩] للتعرف على الخصائص الحجاجية للخطاب النثري وأبعاده ومقاصده ينظرمثلاً : عبدالله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ط/٢ ، دار الفارابي ، بيروت٢٠٠٧م.

[٥٠] ينظر مثلاً : محمد زورق ، مراعاة أقدار المخاطبين في مقدمات كتب الأخبار ، بحث مقدم ضمن أعمال ندوة : قضايا المتكلم في اللغة والخطاب ، دار المعارف للنشر ، تونس٢٠٠٦م ، ص : ٤١-٥٦.

وإذا كان نقاد القصة والرواية يعتمدون أشكالاً عدة في الدرس النقدي لهذه الفنون النثرية فإن الرسائل بوصفها منفتحة على الأجناس الأخرى جديرة بدراسة نقدية مستفيضة حول السرد مثلاً والجانب القصصي ، والألوان الحوارية ، والحديث عن الزمان والمكان ، والشخصيات ، والتراث وغير ذلك من المواطن النقدية التي عادةً ما يوظفها دارسو الرواية والقصة.

لقد كانت المراسلاتُ الأدبية وسيلةَ اتصالٍ وتبادل بين الناس في مختلف طبقاتهم منذ القديم إلى وقت قريب قبل أن يتدفق بركان المعلوماتية ، ويثور طوفان الاتصالات التقنية المتطورة ، فقلّت المكاتبات حينها فيما بين الناس ، ولم يعد لها قيمة أو أهمية ، ومع هذا فإن التطور الهائل الذي نشهده في عصرنا هذا جديرٌ بأن يوظّف في خدمة هذا الفن ، فالهواتف المحمولة مثلاً ، وشبكات التواصل البريدية كالبريد الإلكتروني بأنواعه (الياهو ، والهوتميل) ونحوها ، ومثلها قنوات التواصل الاجتماعية (الفيس بوك) و(التويتر)و(اليوتيوب) ونحوها إنما هي مجالٌ خِصب لأن تُزرعَ فيها بذورُ هذا الفن ، وتوظّفَ فيها أدواتُه ومناهجهُ وأشكالهُ بأيسرِ طريقةٍ ، وأسهلِ وسيلة .

إنّ مثل هذه الوسائل الحديثة عندما تُستعمل استعمالاً صحيحاً ، وتستغل استغلالاً سليماً ستصبح نافذة مفيدة تفتح الآفاق على عوالم الإبداع في دراسة أحوال المرسل والرسالة والمتلقي ، ومن ثم تأخذ بنا نحو درجات

النهوض بهذا الفن ، والرقي به من جديد بعد أن خفت نور توهجه إلى يومنا هذا.

وتتحمل المؤسسات الثقافية والعلمية الدور الأكبر في استعادة هذا الفن لشكله المعهود فالأندية الأدبية مثلاً ، والصالونات الثقافية ، والأماسي ، والمحاضرات ، والمؤتمرات ، والندوات والأقسام العلمية في الجامعات ، وكذلك الصحف والمجلات ، والمنديات الإلكترونية كل هذه الجهات مسؤولة لتعيد إلى هذا الفن بريقه الذي ما زال مختفيا.

ولا أدري لماذا يصيب البعض اليأس ، أو لنقل السأم والملل من ركوب هذا الفن السهل الممتع – ولا أقول السهل الممتنع – وانتشاله من قاع الجمود والركود ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور محمد بن سعد بن حسين حاول الترسل جاهداً من خلال مشاركته في بعض الصحف اليومية كصحيفة الجزيرة ، حيث حاول أن يصنع لنفسه ، وأن يخط لغيره مشروعاً ترسلياً ناجحاً ، لكنه سرعان ما اعترف بأنه لم يصل إلى نتيجة ، ولم تفلح مساعيه[٥١].

والغريب أن الرسائل ليست كالقصائد ، فكثيرٌ منها – كما يرى وديع فلسطين – ينتهي أمرها إلى البلى بعد وقت يطول أو يقصر ، وقليلٌ منها يعرف

---

[٥١] ينظر : د . محمد بن سعد بن حسين ، لون من الإبداع يموت .. الرسائل الأدبية والإخوانية ، مجلة الحرس الوطني ، العدد : ٣٠٠ الرياض ، ٢٠٠٧/٤/١م ، المفكرة الثقافية ، المقال قبل الأخير.

طريقه إلى النشر ، فهي إذن عرضة للتلف والضياع[٥٢] ، وقد يكون هذا من أسباب قلة الاهتمام بهذا الفن لكثرة ما ضاع منه ، ومن المتوقع أن ما وصلنا من رسائل هذا القرن تحديداً هو أقلٌّ بكثير مما فُقِد.

أما في يومنا هذا ، فعلى سبيل الإنشاء والإبداع ، ومقارنةً بالمنجز الروائي ، والقصصي ، وحتى المقالي لا نكاد نعثر على دواوين رسائلية [٥٣] مثلاً مثلاً مما يوحي إذن بأنّ الرسائل إنشاءً ونقداً تحتاج إلى إعادة نظر ، وإيقاظٍ من سبات ، وإحياءٍ بعد ممات.

ختام

دأبت الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة على الاهتمام بفنون نثرية متنوعة، إلا أن اهتمامها بالرواية والقصة كان واضحا وملموسا ، وبشكل يكاد يطغى على غيره من الفنون النثرية الأخرى كالمقالة ، ووصف الرحلة ، والمسرحية ونحوها ، حتى لقد سمى بعضهم هذا العصر عصر الرواية ، وعصر القصة ، بل زعموا أن الرواية ديوان العرب الحديث ، وفي ظل هذا الاهتمام يغيب فن الرسائل الأدبية ، ويهمش دورها ، فلا تكاد تجد لها سوقا في الوقت الذي اتجهت إليه

---

[٥٢] ينظر : وديع فلسطين ، الرسائل الأدبية ، مجلة الفيصل ، العدد : ١٩٧ ، الرياض ذو القعدة ١٤١١هـ ص : ٥ – ٧.

[٥٣] بعد لأي لم أجد في المدونات الحديثة دواوين ترسلية لكتاب معاصرين إلا كتابا واحدا مثلاً وهو : ورد ورماد ، وهو مجموعة رسائل متبادلة بين صديقين . ينظر : ورد ورماد ، محمد برادة ومحمد شكري منشورات وزارة الشؤون الثقافية ، المغرب ٢٠٠٠م.

الناس إلى غيره من الفنون ، من هنا جاءت هذه الورقة لتثبت مكانة هذا الفن الأدبي العريق ، ولتبرز دوره ، وتتحدث عن واقعه.

وقد حاولنا جاهدين في هذه الورقة أن نلم بهذا الفن؛ حيث أشرنا إلى موقعه بين الفنون الأدبية النثرية القديمة والحديثة ، وتحدثنا عن واقعه وواقع نقده في القديم والحديث ، ثم تطلعنا برؤية استشرافية نحو واقع الرسائل ونقدها في عصرنا الحاضر ، وما يمكن أن تؤول إليه في مستقبلها. هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة مصادر البحث

أولا: الكتب

- أبو القاسم الكلاعي ، إحكام صنعة الكلام ، تحقيق: د.محمد رضوان الداية ، ط/2 ، عالم الكتب ، بيروت 1405هـ.
- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ط/2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان1404هـ.
- رسائل إلى محمد الصباغ: تقديم د. إحسان عباس ، دار الثقافة، الدار البيضاء 1982م.
- أحمد السماوي: الأدب العربي الحديث "دراسة أجناسية" ، مركز النشر الجامعي ، تونس 2002م.
- أحمد بن الشيخ علي آل شيخ مبارك ، رسائل في المودة والعتاب والاعتذار والرثاء ، مطابع الحسيني 1427هـ.
- أحمد أمين ، إلى ولدي ، ط/4 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1976م.
- د.آمنة الدهري ، الترسل الأدبي بالمغرب" النص والخطاب " ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، الدار البيضاء١٤٢٤هـ.
- إميل بديع يعقوب ، جبران واللغة العربية ، منشورات جروس ، طرابلس – لبنان ١٩٨٥.
- أمين الريحاني ، الرسائل المتبادلة بين الملك عبد العزيز آل سعود وأمين الريحاني ، دار أمواج بيروت – لبنان ٢٠٠١م.
- بسمة عروس ، التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذجَ من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث إلى السادس هجرياً ، د.ط ، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، منوبة – تونس2007م.
- ابن الأثير، المثل السائر ، د.ط ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت1420هـ.
- ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد د.ط ، دار الطلائع ، القاهرة 2006م.
- ابن الصيرفي ، القانون في ديوان الرسائل ، تحقيق : د.أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة١٤١٠هـ.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان1424هـ.
- ابن وهب الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، جامعة بغداد 1387هـ.
- الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان١٤٢٠هـ.

- د.حسين علي الزعبي ، النقد في رسائل النقد الشعري حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان1422هـ.

- حلمي القاعود ، مدرسة البيان في النثر الحديث ، د.ط ، دار الاعتصام ، القاهرة١٩٨٢م ، وهي في الأصل رسالة ماجستير.
- حمزة شحاته ، إلى ابنتي شيرين ، دار تهامة ، جدة ١٤٠٠ هـ .
- رسائل جير تروو دبيل ، ترجمة: رزق الله بطرس دار الوراق ، لندن 2008م.

- من رسائل الوزير الحسن بن خالد الحازمي ، تحقيق : د.عبد الله بن محمد أبو داهش ، أيها ١٤٠٧هـ.
- الرافعي ، أوراق الورد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٦هـ.
- الرافعي ، رسائل الأحزان ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٥هـ.
- رسائل الرافعي ويليه الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب أنستاس الكرملي، د.ط ، الدار العمرية ، (د.ت)
- روزالي ماجيو ، كيف تقول ما تريد ، تعريب: هالة النابلسي ، مكتبة العبيكان ، الرياض 1425هـ.
- روز غريب ، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1952م.

- روز غريب ، مي زيادة التوهج والأفول ، مؤسسة نوفل ، بيروت – لبنان ١٩٧٨.
- رياض حنين ، أحاديث عن جبران ، مؤسسة نوفل ، بيروت 1983.

- د.سمير حجازي ، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر ، دار التوفيق ، دمشق – سورية١٤٢٥هـ.
- سعد البواردي ، رسائل إلى نازك ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي د.ت.
- شهاب الدين الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، د.ط.
- صالح بن رمضان ، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم ، ط/ ٢ ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٧م.
- الصولي ، أدب الكتاب ، تحقيق: سميح إبراهيم صالح ، دار البشائر ، دمشق1426هـ
- طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ط/3 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة فاروق ، القاهرة 1933م.

- عبدالله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ط/٢ ، دار الفارابي ، بيروت٢٠٠٧م.
- عبد الرحمن محمد العاصمي ، الدرر السنية ط/6 ، 1417هـ
- د .عبد الرزاق حسين ، فن النثر المتجدد ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء – السعودية 1419هـ

- عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ، رسائل إلى ولدي " حتى لا يصيبنا الدوار" ، الدار العالمية للنشر ، كامبيردج ، لندن ١٩٨٣م.
- د. عبد القادر القط ، من فنون الأدب "المسرحية" ، د.ط ، دار النهضة العربية بيروت١٩٧٨م.
- د. عز الدين إسماعيل ، الأدب وفنونه "دراسة ونقد" ، ط/9 ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1425هـ
- عصام حسين إسماعيل أبو شندي ، نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس ، دار الشروق، عمان – الأردن 2006م.
- علي بن خلف الكاتب ، مواد البيان ، تحقيق: د.حسين عبد اللطيف ، د.ط ، منشورات جامعة الفاتح طرابلس1982م.

- القلقشندي ، صبح الأعشى ، د.ط ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٠هـ.
- فاطمة عبدالله الوهيبي ، نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، د.ط ، دار العلوم للطباعة1411هـ.
- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ط/2 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان1424هـ .
- محمد خير شيخ موسى ، النثر الفني في النقد الأدبي ، مكتبة ابن كثير، الكويت1997م.
- محمد زورق ، مراعاة أقدار المخاطبين في مقدمات كتب الأخبار ، بحث مقدم ضمن أعمال ندوة : قضايا المتكلم في اللغة والخطاب ، دار المعارف للنشر ، تونس2006م.

- محمد بن عبد الوهاب ، الرسائل الشخصية ، تعليق وتصحيح : صالح بن فوزان الفوزان ، ومحمد صالح العليقي ، د.ط ، المركز الإسلامي للطباعة د.ت.
- محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية "الخطابة في القرن الأول نموذجاً" دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب 1406هـ

- محمد محمود حمدان ، من رسائل العقاد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٨هـ.
- مي زيادة وأعلام عصرها " رسائل محفوظة لم تنشر 1912 – 1940 ، جمع وتقديم وتحقيق: سلمى الحفار الكزبري ، مؤسسة نوفل ، بيروت – لبنان 1982.
- ناجي عواد ، من أدب الرسائل ، د. ط ، مطبعة المعارف ، بغداد 1977م.
- د.وليد قصاب ، من صيد الخاطر في النقد الأدبي ، دار البشائر ، دمشق – سوريا 1424هـ.

ثانيا: الدوريات

- حسين حمدان العساف ، مراسلات العقاد – مي زيادة ، المجلة العربية ، العدد 401 ، الرياض السنة 34.
- د. محمد بن سعد بن حسين ، لون من الإبداع يموت. الرسائل الأدبية والإخوانية ، مجلة الحرس الوطني ، العدد: 300 الرياض ، 2007/4/1م.

- وديع فلسطين ، الرسائل الأدبية ، مجلة الفيصل ، العدد: 197 ، الرياض ذو القعدة 1411هـ

ثالثا: الرسائل العلمية

- خالد محمد الخزعان ، نثر الخلفاء في العصر العباسي الأول ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام بالرياض ١٤٢١هـ.
- عبد الله بن حميد ، أدب الوعظ في النثر حتى نهاية القرن الرابع الهجري "جمعاً ودراسة" وهي رسالة دكتوراة نوقشت في جامعة الإمام بالرياض 1413هـ.
- مصطفى عيسى الفاغ أمين ، لغة الجاحظ في رسائله ، قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض .
- هيفاء راشد الحمدان ، رسائل بديع الزمان الهمذاني "دراسة أدبية" وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام بالرياض ، عام 1427هـ.